**مدخل إلى علم التاريخ**

**1 – مفهوم علم التاريخ:**

التّاريخ في اللغة مصدرٌ من الفعل أرَّخَ، وتاريخ الشّيء يعني غايتُه ووقتُه الذي ينتهي إليه. أمّا المقصود بالتّاريخ في الاصطلاح، فهو تعريفٌ بالوقت. واختلف العلماء في أصل الكلمة؛ فمنهم من قال إنّ أصلها عربيّ (أرخ بلغة قيس، وورخ بلغة تميم)، ومنهم من قال إنّها فارسيّة (ماه روز الفارسية التي تعني حساب الأيام والشهور)، ومنهم من قال غير ذلك. ولكن التّاريخ بمفهومه العام هو التّوقيت، ويعني ذلك تحديد زمن الأحداث، ووقت حُدوثها. وقد أشار السّخاويُّ إلى ذلك بقوله: "إنّه الفنُّ الذي يبحثُ عن وقائعِ الزّمان من حيث توقيتها، وموضوعه الزّمان والإنسان".

**2 – تطور مصطلح التأريخ:**

لم يظهر هذا المصطلح لا في الأدب الجاهلي، ولا في القرآن الكريم، ولا في الأحاديث النبوية. وكان استخدامه لأول مرة بعد إدخال عمر بن الخطاب رضي الله عنه التقويم الهجري، حيث ورد في بردية يرجع تاريخها إلى سنة 22ه.

تطور مدلول الكلمة ليصبح الكتب التاريخية، وأقدمها كتب التراجم التي تتعرض لسنوات ميلاد ووفاة الشخصيات المترجم لها؛ ليتحول بذلك التاريخ عند المسلمين، إلى فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت، ولهذا عدت كتب السير والمغازي من الكتب التاريخية.

**3 – التقويم الهجري:**

كانت فكرة الوقت وتحديده في المجتمع الجاهلي غير مضبوطة، فأرخ العرب بالوقائع المشهورة التي تحدث خلال السنة، حيث أرخ العدنانيون مثلا بعام نزول إسماعيل عليه السلام مكة، وبعام الفيل الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم. كما أرخت قريش بعام وفاة هشام بن المغيرة (والد أبا جهل) لعظمة مكانته عندهم، وأرخوا ببناء الكعبة. وأرخ أهل صنعاء بظهور الحبشة على اليمن، ثم أرخ العرب بالأيام المشهورة كحرب البسوس وداحس، وبحرب الفجار، إلى أن أرخوا في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالتقويم الهجري بعد أن قال لهم: "ضعوا للناس تاريخا يتعاملون عليه، وتصير أوقاتهم مضبوطة فيما يتعاطونه من معاملاتهم".

فبعد أن دون عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدواوين، ووضع الأخرجة، وسن القوانين، احتاج إلى تأريخ، فجمع الناس وعرض عليهم اختيار حدث معروف يكون أساسا للتاريخ الإسلامي، فذكر بعضهم بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأشار عليه آخرون بتاريخ وفاته عليه الصلاة والسلام، واقترح آخرون مولده صلى الله عليه وسلم، فاستحسن عمر رضي الله عنه الرأي القائل بهجرته صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وأجمع المسلمون على ذلك في السنة الرابعة من خلافة عمر رضي الله عنه، أي سنة 17ه.

يرجع البعض العمل بالتقويم الهجري إلى ما يلي:

- تلقي عمر رضي الله عنه كتابا مؤرخا من اليمن بعث به إليه يعلى بن أمية، فاستحسنه عمر، وشرع في التأريخ الهجري، فأصبح هذا التقويم أساسا في نشأة الفكرة التاريخية.

- تلقي عمر رضي الله عنه كتابا من أبي موسى الأشعري يقول فيه: "إنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ليس لها تأريخ، فلا ندري على أيها نعمل".

**4 – عناية المسلمين بالتاريخ:**

عرفت الدولة الإسلامية في بداية عهدها حركة تاريخية اتسمت بالتنظيم والتطور. ومن أهم العوامل الدافعة إلى ذلك:

- حاجة المسلمين في تفسير آيات القرآن إلى معرفة أسباب النزول، ومكانه، والحادثة التي تشير إليها. ويحتاج هذا الأمر إلى بحث تاريخي، ومن ثم كان التفسير من العوامل المشجعة على التدوين التاريخي عند المسلمين.

- عناية المسلمين بجمع الحديث النبوي لتفسير القرآن واستنباط أحكام الدين. وكان من هذه الأحاديث ما يتعلق بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم، فجمعت لتكون أساسا لكتب السير والمغازي.

- شعور بعض الخلفاء بالحاجة إلى نبراس يهتدون به في سلوكهم، فتطلعوا إلى معرفة ماضي الممالك التي أبهرتهم بحضارتها، ليأخذوا منه ما يساعدهم على حل مشاكلهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

- افتخار غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام بتاريخهم وحضارتهم، مما اضطر العرب إلى ابتكار تاريخ يبرز أمجادهم.

- اضطرار المسلمين للبحث في تاريخ الفتوح، لأن في نظامهم المالي، يختلف الخراج المفروض على البلدان المفتوحة تبعا لطريقة فتحها (صلحا أو عنوة أو بعهد).

- تغير نظام العطاء منذ عهد عمر رضي الله عنه، حيث صار حسب الأسبقية إلى الإسلام.(الأقدم في دخول الإسلام يأخذ أكثر من غيره - من أسلم وهاجر يأخذ أكثر ممن أسلم بعد الهجرة - من أسلم وشهد بدرا يأخذ أكثر ممن أسلم بعدها). وقد دفع هذا الأمر إلى البحث الدقيق في مسار الدعوة الإسلامية.

- اختلاف العطاء حسب الأنساب (قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الأقرب فالأقرب – قرابة أبي بكر – قرابة عمر...)؛ مما أدى إلى ظهور تاريخ الأنساب وكتب الطبقات.

- ابتداء حركة التأليف في العلوم الأخرى المعروفة بين العرب، وتنشيط حركة الترجمة.

- استمرار ما كان من عناية بالأنساب والأيام في الجاهلية، لحاجة الشعر إلى ذلك، خاصة في مجال الفخر والهجاء.

- العناية بغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، فظهرت كتب المغازي والسير.

**5 – نشأة علم التاريخ عند المسلمين:**

قام علم التاريخ عند العرب على أساس الرواية الشفهية. فطبيعة المجتمع القبلي في بلاد العرب وما كان يسود هذا المجتمع من مفاخرة الأفراد والقبائل بحسبها ونسبها، جعل الكثير يحرص على رواية مفاخره وذكر مثالب خصومه، وبقي ذلك ينتقل من جيل إلى جيل.

كانت قبائل شمال شبه الجزيرة العربية تقص أخبار الحروب التي دارت بين القبائل المختلفة، وهو ما عرف باسم "أيام العرب". وعلى الرغم مما في هذه الأخبار من الخيال والغموض وقلة الدقة، إلا أنها ساهمت في نشأة علم التاريخ، حيث لم يقض عليها الإسلام، بل إن مؤرخي فجر الإسلام اعتمدوا عليها كثيرا فيما دونوه عن بلاد العرب الشمالية قبيل الإسلام وفي القرن الأول الهجري. كما كان لها فضل كبير في حفظ أنساب العرب.

شغلت الدعوة الإسلامية العرب عن أساطير الأولين، وعن أخبار اليهود وأحبارهم، والنصارى ورهبانهم، وعن أخبار الأمم المجاورة كالأحباش والروم والفرس والهنود. ولما استقر الإسلام بدأ العرب يهتمون بأخبارهم القديمة، حيث شهد القرن الأول بعد الهجرة عناية بتنمية الأخبار المختلفة عن العرب قبل الإسلام، والأمم التي عاصرتهم. وممن عرفوا بالدراية في هذا المجال: وهب بن منبه (ت 111ه/728م)، وعبيد بن شرية الجرهمي (ت 60ه/679م). ويبدو أن تدوين هذه الأساطير والأخبار والسير بدأ في العصر الأموي في صحف وكراريس؛ إذ ألف عبيد بن شرية لمعاوية بن أبي سفيان كتابا سماه "كتاب الملوك وأخبار الماضين".

اشتغل بالأخبار الشفهية عن العرب في الجاهلية الرواة والنسابة، ثم انظم إليهم الأدباء الذين انكبوا على دراسة ما وصل إليهم من الشعر الجاهلي، فاطلعوا على أخبار عرب الشمال وأيامهم في الجاهلية، وأخبار المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفي عصر الفتوحات. من بين هؤلاء الرواة والنسابة والأدباء، ظهر المؤلفون الذين مهدوا للكتابة في التاريخ أمثال: محمد بن السائب الكلبي (ت 146ه/763م)، وابنه هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت 204ه/819م)، ولوط بن يحي بن سعيد بن مخنف الأزدي (ت 157ه/773م)، وسيف بن عمر الكوفي الأسيدي (ت 170ه/786م)، وأبو الحسن المدائني (ت 225ه/839م)، والزبير بن بكار (ت 256ه/869م).

كان للدين الإسلامي أثر كبير في إيجاد وتطور علم التاريخ عند العرب، حيث فاق المسلمون غيرهم من الأمم في هذا العلم، وذلك بحفظ الصحابة رضي الله عنهم للقرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم. فأما القرآن الكريم، ففيه شيء من أخبار العرب قبل الإسلام، كذكر بعض القبائل العربية القديمة مثل عاد وثمود، وقصص الأنبياء، وبعض أخبار ملوك اليمن. كما أنه يسلط الضوء على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والصعوبات التي واجهت دعوته، وبذلك يعد المصدر الأول لدراسة نشأة الإسلام وعقائده. غير أنه لم يشمل بالذكر كافة الحوادث التي مر بها الإسلام، وكل الأعمال التي قام بها نبينا عليه الصلاة والسلام. ولحفظ الوحي، استعان الرسول صلى الله عليه وسلم ببعض الكتاب منهم: زيد بن ثابت وأبي بن كعب. وجمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه من خلال الصحف التي دونها الكتاب من قبل، وبالاعتماد على ما حفظ في صدور الرجال.

أما الأحاديث، فتتصل اتصالا وثيقا بنشأة التاريخ عند العرب بعد القرآن. فكلمة "حديث" كانت تعني الخبر أو الرواية الشفهية، ثم صارت في الإسلام تعني أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم؛ في حين كلمة "سنة" كانت تعني طريقة التصرف العادي، أو العادة المتبعة عند العرب في الجاهلية. ولما جاء الإسلام أصبحت تعني عادة الرسول صلى الله عليه وسلم (أي ما عمله أو أقره أو رآه ولم ينكره).

كان الصحابة الذين عاصروا الرسول صلى الله عليه وسلم، خير مصدر عن الحديث والسنة. وبعد ذلك أخذ الناس الحديث والسنة عن التابعين (الجيل الذي تلى عصر النبوة وسمع الحديث عن الصحابة). ثم أخذ بعد ذلك عن التابعين، تابعوا التابعين. وقد رأى المسلمون في الحديث والسنة، أساسا بعد القرآن لمعرفة أمور الحياة الدينية والدنيوية.

بعد محاولات كثيرة لتدوين الحديث خوفا من ضياعه أو تحريفه من قبل أصحاب الهوى، ظهر التدوين المنظم له في القرن الثالث الهجري؛ إذ ظهرت في هذا القرن مجموعات من كتب الحديث أبرزها عند أهل السنة ستة وهي: صحيح البخاري (ت 256ه/870م)، وصحيح مسلم (ت 261ه/875م)، وسنن أبي داود (ت 275ه/ 807م)، وسنن الترمذي (ت 279ه/892م)، وسنن النسائي (ت 303ه/915م)، وسنن ابن ماجة (ت 273ه/886م).

كانت بداية التأليف العلمي في التاريخ عند المسلمين وثيقة الصلة بالحديث والسنة، بالاعتماد أساسا على الرواية الشفهية. وكان الهدف من هذا العلم عند المسلمين، دراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأعمال الصحابة، وأخبار الغزوات، وأحوال المجتمع الإسلامي ككل. وإذا كان كل من علم الحديث وعلم التاريخ يعتمد على الرواية الشفهية، فإن الأول يهتم بالروايات التي تقرر مبادئ فقهية أو أخلاقية، بينما يعنى المؤرخون بالروايات التي تتجه إلى سرد الحوادث، ومع ذلك يشتركان في المصادر والمنهج؛ إذ يأخذ كل جيل عن الجيل الذي سبقه.

إن حرص المحدثين على الإسناد (السلسلة المتصلة بالرواة الموثوق بهم)، دفعهم إلى الاهتمام بدراسة سيرهم الذاتية، فظهرت كتب الطبقات، مثل طبقات ابن سعد (ت 230ه/844م)، وطبقات الحفاظ للذهبي (ت 748ه/ 1347م). كما ظهرت كتب السير والمغازي، مثل كتاب السير والمغازي لابن اسحاق (ت 151ه/768م).